جامع الأمير قوصون الساقى

٧٣٠هـ / ١٣٣٩-١٣٣٠م

دكتورة

ميرفت محمود عيسى

كان جامع قوصون أحد جوامع مصر الشهيرة التى شيدت فى عصر إزدهار العمارة الاسلامية بمصر ، شيده أحد أمراء مصر العظام وأحد أثريائهم فى عصر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون[١] سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ - ١٣٣٠ م .

فمشيده هو الأمير سيف الدين قوصون الذى قدم الى مصر سنه ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م صحبة الجماعة الذين أحضروا خوند بنت أزبك خان ملك التتار التى تزوجها الملك الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

ولم يكن قوصون مملوكا[٣] وانما جاء الى مصر بغرض التجارة ، واتفق فى أحد الايام أن صعد الى قلعة الجبل ليبيع ما معه لبعض المماليك فرآه الملك الناصر محمد وأعجب به ، فقد كان صبيا جميلا طويلا له من العمر ما يقارب الثمانى عشرة سنة .

وآمر الناصر بإحضاره اليه ، وقيل ان الناصر ابتاعه من نفسه ليصير بعد ذلك من جملة مماليكه السلطانيه ، فلم يلبث الناصرأن جعله ساقيا[٤] ثم رقاه حتى جعله أمير مائة ومقدم الف[٥] وصار أعظم مماليكه .

---

١ ـ الملك الناصر محمد بن قلاوون ولد سنة ٦٨٤ هـ بقلعة الجبل . وكانت سلطنته على ثلاث فترات ، من عام ٦٩٣ : ٦٩٥ خ ومن عام ٦٨٩ : ٧٠٨ هـ ومن عام ٧٠٩ حتى وفاته سنة ٧٤١ هـ .(جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب . جـ ٩ ص (١٦٥) .

٢ ـ شهاب الدين أحمد بن على الشهير بابن حجر العسقلانى . الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . بيروت جـ٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ - تقى الدين احمد بن على المقريزى . المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة . جـ ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ . وخوند بنت أزبك هى الخاتون بنت أخى السلطان أزبك خان طولو ، يقال دلنتبية ويقال طولونية ، أبنة طغاى بن بكر بن دوشى خان بن جنكز خان . (تقى الدين أحمد بن على المقريزى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . تصحيح محمد مصطفى زياده . جـ٢ ق١ ص٢٠٣ : ٢٠٥) .

٣ - ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة جـ١٠ ص ٤٦ .

٤ - الساقى : هو الذى يتولى مد السماط وتقطيع اللحم وسقى المشروب بعد رفع السماط .(أبو العباس احمد القلقشندى . صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء . القاهرة . ١٩١٣ م جـ ٥ ص ٤٥٤) .

٥ - أمير مائة ومقدم الف : أعلى مراتب الأمراء فى عصر المماليك . وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف ويكون فى خدمة صاحبها مائة مملوك وهو فى نفس الوقت مقدم على الف جندى من أجناد الحلقة فى وقت الحرب

وعظمت منزلة قوصون عند الناصر وحظى بما لم يحظ به أحد عنده ، وزوجه بإحدى بناته وتزوج الناصر بأخته . وكان قوصون يقول عن نفسه : أنا ما تنقلت من الأسطبلات الى الطباق ، بل إشترانى السلطان و جعلنى خاصكيا [١] مقربا عنده دفعة واحدة ، وكنت من خواصه أمرنى وقدمنى وزوجنى بنته [٢]. وهكذا تزايد أمر قوصون فى سلطنة الملك الناصر ، فلما احتضر الناصر جعله وصيا على أولاده فأخذ قوصون بعد وفاة الناصر محمد بأسباب السلطنة وصار يخلع ويولى وتقلد نيابة السلطنة بالديار المصرية [٣].

وظل أمره فى تزايد وصار أمر الدولة كله بيده الى ان كان ٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م حين خرج عليه كبار الأمراء وتمت محاصرته فى قلعة الجبل ثم قبض عليه ليلة الأربعاء آخر رجب سنة ٧٤٢ هـ ، وحمل الى الأسكندرية فسجن بها حتى قتل فى أواخر شهر شوال من هذا العام ، فى سلطنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون [٤] . وكان قوصون أميرا جليلا خيرا شجاعا اذا ركب للصيد فى أيام استاذه يركب فى خدمته ثلث عسكر مصر [٥] وقد خلف قوصون عدة أولاد من بنت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد خلف قوصون عدة أولاد من بنت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون .

منشأته :

شيد الأمير قوصون عددا من المنشآت الهامة بالقاهرة ، منها قصره المنيف بجوار

١- الخاسكى : المماليك الخاصكيه هم الحرس الخاص للسلطان الذين يحيطون به ويحرسونه ويلازمونه حتى فى أوقات خلوته . (خليل بن شاهين الظاهرى . زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك . باريس ١٨٩٣ م . ص ١٥٥ - ١٦٦) .

٢- ابن حجر . الدرر الكامنة . جـ٣ ص ٣٥٨ ـــــ ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ ١٠ ص ٤٧ .

٣ - نائب السلطنة : هو لقب على القائم مقام السلطان فى عامة أموره أو غالبها ، يقال فيه نائب السلطنة الشريفة . (القلقشندى . صبح الأعشى . جـ ٥ ص ٤٥٣) .

٤- هو السلطان أحمد بن الناصر محمد بويع بالسلطنة وهو بقلعة الكرك بعد خلع أخيه كجك سنة ٧٤٢ هـ وخلع فى المحرم سنة ٧٤٣ هـ .

٥ - ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ ١٠ ص ٤٧ .

جامع السلطان حسن[١] كما شيد خانقاه وجامعا تجاهها بباب القرافة [٢] ووكالة بباب النصر[٣] . وحكر قوصون [٤] والجامع خارج باب زويلة موضوع هذا البحث .

---

١ - أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار فأخذه الأمير قوصون وزاد فيه ، وآمره الملك الناصر محمد بعمارته فبنى فيه كثيرا وأدخل فيه عدة عمائر ما بين دور وإسطبلات فجاء قصرا عظيما الى الغاية وسكنه الأمير قوصون مدة حياة الملك الناصر (المقريزى . الخطط . جـ٢ ص٧٢) . وقد صار هذا القصر فيما بعد بيتا لسكن كل من صار أتابك العساكر . (ابن تغرى بردى . النجوم جـ٩ ص ١٢١) ومكانه اليوم المنطقة التى تشمل على القصر الآثرى المعروف بقصر يشبك (آثر ٢٦٦) والارض الفضاء المحيطة بهذا القصر والارض المقام عليها الان مدرسة عثمان باشا الواقعة خلف القصر والارض القائم عليها النصف الغربى من عمارة والدة الخديوى اسماعيل المطله على ميدان صلاح الدين (محمد رمزى . حاشية كتاب النجوم الزاهرة . جـ ٩ص ١١٠ - ١١١) .

٢- هذه الخانقاه فى شمالى القرافة مما يلى قلعة الجبل تجاه جامع قوصون . كملت عمارتها سنة ٧٣٦ هـ ،ظلت قائمة حتى كانت المحن سنة ٨٠٦ هـ فبطل أمرها وتلاشى من بعد أم كانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعا وخيرا . (المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ٤٢٥ - جلال الدين السيوطى . حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . ص ٢٦٦) . وقد خربت هذه الخانقاه ولم يبق منها الا القبة والمنارة المعروفة بالمنارة الكبيرة أو الوسطى بشارع جلال الدين السيوطى خارج باب القرافة بقسم الخليفة (محمد رمزى . حاشية كتاب النجوم . جـ ٩ ص ٢٠٧) . أما الجامع فقد كان واقعا داخل باب القرافة تجاه الخانقاه . عمر قوصون بجانبه حماما فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاة والجامع باق الى يومنا هذا. (المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ٣٢٥) وبالبحث تبين ان هذا الجامع كان يقع خارج باب القرافة تجاه الخانقاه ، ومن المرجع ام جامع المسيحية هو جامع قوصون جدده مسيح باشا والى مصر سنة ٩٨٤ هـ فنسب اليه . (محمد رمزى . حاشية كتاب النجوم . جـ ٩ ص ٢٠٧) .

٣- هذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام وموضعها فيما لبن الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء . (المقريزى . الخطط . جـ ٢ ص ٩٣) وهذه الوكالة لم يتبق منها سوى كتلة المدخل . د . آمال أحمد العمرى . المنشأت التجارية بالقاهرة فى العصر المملوكى . مخطوط رسالة دكتوراة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة . ص ١٧٦ .

٤ ـ حكر قوصون كان مجاورا لقناطر السباع . كان بستانين أحدهما كان يعرف ببستان بهادر رأس نوبة ومساحته خمسة عشر فدانا اشتراه قوصون وقلع غروسة واذن للناس فى البناء عليه فبنوه دورا (المقريزى . الخطط . جـ ٢ ص ١١٥ - السلوك . جـ٢ ق٢ ص ٥٤٣).

موقع الجامع وتاريخ الإنشاء :

يقع جامع قوصون بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة (لوحة١) ، ويطل بواجهته الحالية (الحديثة) على شارع محمد على (القلعة حاليا) . أما موقع الجامع قديما فحدثنا عنه المقريزى بقوله :

يقع جامع قوصون بالشارع خارج باب زويلة[١] ، كان موقعه دارا بجوار حارة المصامدة [٢] من جانبها الغربى تعرف بدار أقوش نميلة ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلى [٣] فاشتراها قوصون من ولده وهدمها وشيد هذا الجامع[٤] وتولى بناءه شاد العمائر السلطانية [٥] واستعمل فيه الاسرى[٦] . أما أبو المحاسن ابن تغرى بردى فحدد موقعه

١- خارج باب زويلة : هذا الشارع تجاه من خرج من باب زويلة ، يمتد فيما بين الطريق السالك ذات اليمين الى الخليج ، وبين الطريق المسلوك فيه ذات اليسار الى قلعة الجبل . (المقريزى . الخطط . جـ ٢ ص ١٠٠) .

٢ - حارة المصاعدة عرفت بطائفة المصاعدة ، احدى طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين . إختطت فى خلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة ٥١٥ هـ . وكانت تقع خارج الباب الجديد الحاكمى ، على يسرة الباب المذكور قبالة بركة الفيل . وكان بينها وبين بركة الفيل فضاء . ومن المعتقد انها حارة الهلالية . (المقريزى . الخطط . جـ ٢ ص ٢٠) وهذه الحارة كانت تقع شرق جامع قوصون ، ولاتزال احدى العطف الضيقة بجوار الجامع من شرقيه تعرف بزقاق المصامدة .

٣ - هو الامير جمال الدين أقوش المنصورى المعروف بقتال السبع . أمير علم ، مات بالديار المصرية سنة ٧١٥ هـ . وكان من أكابر أمرائها (ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ ٩ ص ٢١٦) .

٤- الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧) .

٥ - هو الذى يتولى شد العمائر الموقوفة ويجدد ويصلح ما فيها بإعتباره من العارفين بأمور الهندسة والبناء ، ويشرف على أرباب الصناعات المختلفة فى العمائر . (د . عبداللطيف ابراهيم . وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسنى . مجلة كلية الأداب . المجلد ١٨ الجزء الثانى . القاهرة . ١٩٥٩م . ص ٢٤٥) . وشاد العمائر السلطانية هو ناظر العمارات والمبانى السلطانية .

٦ - يبدو ان بعض سلاطين المماليك قداستخدموا الآسرى فى بناء العمائر المختلفة كالمساجد والبيمار ستانات فقد ذكر المقريزى ان الاآسرى قد استخدموا فى بناء البيمار ستان المنصورى الكبير .الخطط . جـ٢ ص ٤٠٧) وقد استخدموا أيضا فى بناء جامع قوصون فقد أنعم الناصر محمد عليه بشاد عمائره وبمجموعه من الآسرى لنقل الحجارة عند بناء هذا الجامع (الخطط . جـ٢ ص ٣٠٧) .

فقال[١] : هذا الجامع بالشارع الأعظم[٢] بالقرب من بركة الفيل[٣] . ثم حدد موقع الجامع فى القرن التاسع عشر الميلادى ، فى خريطة الحملة الفرنسية (لوحة٢) بأنه يقع فى المحور الشرقى الكبير لمدينة القاهرة ، على جزء من حى السروجية وكان يحمل رقم ١٠٦ محفورا بجانب المئذنة[٤] .

ولقد ذكرت المصادر ان قوصون قد شرع فى بناء هذا الجامع عام ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩-٣٠م وانجزت عمارته فى مدة يسيرة ، ولما كمل بناؤه أقيمت فيه الجمعة فى يوم ٢١ رمضان سنة ٧٣٠ هـ وافتتحه الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد جاء من أحسن المبانى[٥]

تاريخ الجامع عبر العصور

شيد جامع قوصون فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وكان واحدا من أجمل وأضخم مساجد مصر فى هذا القرن ، ولكنه للأسف ، لم يصل الينا منه شيئ يساهم فى معرفة الشكل أو التخطيط الأصلى له وذلك لتعرضه لمعول الهدم عدة مرات بحيث لم يبق منه سوى أجزاء قليلة جدا ، ورغم ذلك فقد ساهمت هذه الاجزاء مع بعض العبارات القليلة والمتفرقة فى المصادر والمراجع الى حدما في معرفة الشكل الأصلى للجامع .

فجامع قوصون الذى شيد في هذا القرن قد زال وشيد علي جزء من أرضه مسجد حديث ، يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى

١- النجوم الزاهرة . جـ ٩ ص ٩٦ .

٢- الشارع الأعظم هو الطريق الذى يبدأ من باب الفتوح الى باب زويلة ويضم شارع المعز لدين الله والأشرفيه والغورى ثم شوارع قصبة رضوان والخيامية والمغربلين والسروجية والحلمية والسيوفية ..... وينتهى عند جامع السيدة نفيسة .

٣ - كانت فيما بين القاهرة ومصر وهى كبيرة جدا ولم يكن عليها فى القديم بنيان ، ثم عمر الناس حولها بعد سنة ٦٠٠هـ حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر كلها . وتعرف الآن بالحلمية الجديدة (المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ١٦١) .

٤ - Max van Berchem . Materioux Pour corpus inscriptionum Arabicarum . Paris . 1903 .p. 177.

٥ - المقريزى . السلوك . جـ٢ ق ٢ ص ٣٢٠ - ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ ٩ص ٩٦ .

(١٣١١هـ / ١٨٩٣م) ، وهذا المسجد الحديث لا يحمل من ملامح وتصميم الجامع الأصلى شيئا وإنما يحمل الاسم فقط . فالجامع الأصلى لم يتبق منه بصورة أساسية سوى بوابتين إحداهما تقع بشارع السروجية . أثر ٢٢٤) والثانية بحارة درب الأغوات (أثر ٢٠٢) وهما لاتدخلان فى نطاق منشآت الجامع الحالى .

وبالعودة الى تاريخ الجامع بعد إنشائه سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٠م نجد أنه قد ظل قائما يؤدى وظائفه ، رغم ما ذكره البعض[١] من أن هذا الجامع قد بدأت محنة صاحبه فى عام ٧٤٢هـ فوصلت إلينا مشوهة بسبب الاعتداء عليها . وقد اعتمد هؤلاء فى رأيهم هذا على ما ذكرته المصادر المملوكيه من أن منشآت قوصون قد تعرضت للنهب والتدميراثر القبض عليه ، وقبله ، وهو ما حدثتا عنه المقريزى فى خططه وابن تغرى بردى فى نجومه .

اذ حدثتا المقريزى عن خراب قصره[٢] فقال : اقتحم غوغاء الناس اصطبل قوصون وانتهبوا ما كان بركاب خاناته [٣] وحواصله ، وكسروا بابه وأتوا على جميع ما فيه من الخيل والسروج وحواصل المال ..... وأكياس الذهب والجواهر النفيسة ... كما أخذوا من القصر حتى سقفوه وأبوابه وتركوه خرابا .

أما ابن تغرى بردى فحدثتا عن خراب الخانقاه [٤] فقال : ثم مضى النهابة الى خانقاته بباب القرافة فمنعهم صوفيتها من النهب ، فما زالت العامة تقاتلهم حتى فتحوها ونهبوا ما فيها ، وقطعوا بسطها وكسروا رخامها وأخرجوا بركتها وأخذوا الشبابيك وخشب الشقوف والمصاحف وشعثوا الجدر وباعت العامة السقوف والابواب بأخس الآثمان .

وفى اعتقادنا ان جامعيه لم يتعرضا لما تعرضت له خانقاته وقصره ، فلم يشر

١- حسن عبدالوهاب . تاريخ المساجد الآثرية . القاهرة . ١٩٤٦ م . جـ ١ ص ١٤٠

٢ - الخطط جـ ٢ ص ٧٢ - ٧٣ .

٣- الركاب خاناه معناها بيت الركاب وتشمل على عدد الخيل . (القلقشندى . صبح الاعشى . جـ ٤ ص ١٠٣ .

٤ - النجوم الزاهرة . جـ ١٠ ص ٤٥ .

المقريزى أو ابن تغرى بردى الي خراب لحق بهما ، بل وجدنا الأخير يصفه بأنه من أحسن المبانى رغم مرور ما يزيد على قرن من الزمان على إنشائه ، كما وصفه آخرون من مؤرخى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى مثل ابن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٣ هـ) كأحد مساجد مصر الرائعة المطلة على بركة الفيل[١] ، وغيره كثيرون[٢] .

ولم يذكر خراب الجامع ، موضوع هذا البحث ، سوى المؤرخ ابن اياس[٣] الذى قال: إن العوام نهبوا خانقاته وجامعه الذى بالقرب من بركة الفيل . ولكننا لانميل إلي الأخذ برأى ابن اياس ، فقد عهدنا منه في بعض الأحيان إنفراده برأى فى حين يجمع الآخرون على رأى آخر ، بالإضافة الى تأخر عصره عن المقريزى وابن تغرى بردى .

فقد جاء جامع قوصون فى خريطة الحملة الفرنسية (١٧٩٨ : ١٨٠١م) بعد ما يزيد على خمسة قرون من إنشائه ، وكان لايزال محتفظا بأغلب عناصره المعمارية والزخرفية وبمعظم أجزائه ، وكان يحمل رقم ١٠٦ ، كما ذكرنا محفورا بجانب المئذنة ، وقد زال هذا الرقم ومع معظم أجزاء الجامع عند توسيع شارع محمد على[٤] .

وهكذا يتبين لنا أن جامع قوصون قد ظل صامدا أمام محن الدهر ومحن صاحبه الى ان حلت به المحنة الأولى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م والتى حدثتا عنها الجبرتى[٥] بقوله :

فى يوم ٢٩ شعبان سنة ١٢١٥ هـ / ١٥ يناير سنة ١٨٠١ م سقطت منارة جامع قوصون ، سقط نصفها الأعلى فهدم جانبا من بوائك الجامع ، ونصفها الأسفل مال على الأماكن المقابلة له بعطفة الدرب النافذ لدرب الأغوات [٦] ، وبقى مسندا كذلك قطعة واحدة

---

١ - زبدة كشف الممالك . ص ٢٩ : ٣١ .

٢- على ابن احمد السخاوى . تحفة الاحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات . الطبعة الأولى . ١٩٣٧ م جـ ١ ص ٤٩٤ .

٣- محمد ابن اياس الحنفى. بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى . القاهرة . ١٩٨٢. م.جـ١ ص ٤٩٤.

٤ - Van Berchem . op . cit . p . 177

٥ - عبدالرحمن الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والاخبار . بيروت جـ ٢ ص ٤٠٥ .

٦ - هى حارة كبيرة بأول شارع السروجية من جهة اليمين تتصل بعطفة أباظة المتصلة بعطفتى القيسونى والشيخ عبدالله المتصلتين بشارع محمد على ، بها ضريحان وبها جامع قوصون ايضا وله بابان احدهما بهذه الحارة . (على باشا مبارك . الخط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة . طبعة الثانية . ١٩٧٠ م جـ٢ ص ١٤٢).

الى يومنا هذا[١] وأظن ان سقوطها من فعل الفرنسيس بالبارود .

ويبدو ان موقع جامع قوصون بالقرب من قلعة الجبل ، وأمام بركة الفيل ، حيث دور وقصور كبار أمراء المماليك قد جعل من الجامع هدفا غير مباشر لمدافع الفرنسيين[٢] . اذ حدثنا الجبرتى[٣] عن الخراب الذى أحدثوه بهذه المنطقة فقال : توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الآمراء التى كانت بها وكانت هذه بركة من جملة محاسن مصر .

وقد ترتب على سقوط مئذنة جامع قوصون ، التى حدثتا عنها الجبرتى ، تهدم جزء كبير من الضلعين الشمالى الغربى والشمالى الشرقى ، فمن الواضح ان المئذنة المقصودة هى التى كانت تعلو المدخل الشمالى الشرقى لجامع قوصون ، والواقع بدرب الأغوات . وهذا يعنى ان جامع قوصون قد فقد جزءا كبيرا من تكوينه على أثر سقوط هذه المئذنة . فقد وصف لنا Prisse d, Avennes [٤] الجامع بعد هذه المحنة فقال :

لم يبق من المسجد اليوم سوى الايوان الذى به المحراب (يقصد رواق القبلة) وبعض صفوف الأعمدة التى تتجه . ناحية الجنوب ، أما منارته فقد سقطت بسبب الهزة الأرضية الأخيرة للزلزال ، كما وصف لنا ما تبقى من حوائط الجامع وصفها بأنها مزدانة بطراز جميل ، وقد فتحت بها شبابيك جصية مفرغة بطراز جميل أيضا ، كما وصف القبة أعلى المحراب بأنها ذات تصميم جميل ، ولكنها محمولة اليوم على أعمدة ذات أشكال و إرتفاعات مختلفة.

وبذلك أوضح prisse d, Avennes بصورة غير مباشرة ان هذا الجامع قد خرب وبطل اصلاحه ، وقطعا كانت الصلاة قد بطلت فيه ونهيت أعمدته الأصلية ، إذ يقول : ولقد صارت قبة الجامع ، الجميلة الشكل أعشاشا حقيقية للحمام ، ومع حب الأتراك لهذه الطيور ،

---

١ - توفى الجبرتى سنة ١٢٤١ هـ وكان آخر ما أرخ له عام ١٢٣٦ هـ .

٢ - ذهب البعض الى ان المسجد قد تعرض للهدم من قبل الفرنسيين . وان كنا نستبعد ذلك (ابراهيم ابراهيم عامر . العمائر الدينية بمدينة القاهرة فى عصر اسماعيل وتوفيق وعباس حلمى الثانى . مخطوط رسالة دكتوراه بمكتبة جامعة طنطا . ص ١١٢).

٣- المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

٤ - Prisse d,Avennes . L, Art Arabe D, apres Les monuments du Caire Parid . 1873 . p.107

فقد تركوا لها أعشاشها ، وصنعوا لها حوضا للشرب بالقرب من المنبر ، ولحماية تلك الطيور من الصيادين أغلقوا فتحات العقود والنوافذ بإيوان القبلة.

ثم وصف بعد ذلك تحف الجامع المنقولة ، والتى كانت لاتزال موجودة به ، وان اصاب بعضها التلف مثل المنبر ، وكذلك كرسيين للمصحف وتنورا من البرونز يبلغ طوله حوالى ثلاثة أمتار.

وبعد أعوام قليلة من وصف prisse d, Avennes لهذا الجامع تعرض جامع قوصون لمحنته الثانية والقاضية ايضا ، والتى حدثنا عنها على باشا مبارك [١] فقال :

فى عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٦م) أخذ من جامع قوصون جانب فى فتح شارع محمد على ، زالت فيه مئذنته ومرافقه ، وهذا الجانب كان الضلع الجنوبى من الجامع . وبذلك تخرب الجزء الأعظم من جامع قوصون ولم يبق فيه سوى القليل جدا .

الأجزاء القديمة من الجامع

لم يبق من المسجد القديم إلا الباب البحرى (لوحة ٣) وهو مع ضخامته تسوده البساطة ، تجاوره بقايا الزخارف والشبابيك الجصية التى تلاصق المسجد الجديد من بحريه (لوحة ٤) ولعلها جزء من الإيوان الشرقى للجامع القديم . كذلك بقى احد أبواب المسجد (لوحة ٥) ، وهذا الباب بشارع السروجية يتوصل منه الى حارة خلف المسجد الجديد ، توصل لشارع محمد على ، وتعرف بعطفة المحكمة ، وهو من الأبواب الفخمة [٢] كما تبقت بعض حوائط الرواق الجنوبى الشرقى (لوحة ٦) وبها بعض النوافذ الصغيرة وبقايا بعض العقود .كما كانت قبة حتى عام ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٦م ، ولكن من الواضح أنها زالت ضمن ما زال من الرواق الجنوبى الشرقى[٣] بعد بناء الجامع الجديد سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣م .

هذه هى المخلفات القديمة من جامع قوصون ، وهى لا تلقى ضوءا جديدا عليه ، بل

١- الخطط . جـ ٥ ص ٢٠٠ .

٢ - حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ١٤٠ .

٣ - على مبارك . الخطط جـ ٥ ص ٢٠٠ .

تزيد أمره تعقيدا ، فإن المسافة بين الباب بشارع السروجية وبين الزخرفية القديمة كبيرة جدا ، ولا شك أن الجامع كان كبيرا ، وعلى ذلك يكون هذا الباب موصلا الى ملحقات حول المسجد . مما يرجح ان الأمير قوصون لم ينشئ الجامع فى هذه المنطقة فقط ، بل أنشأ حوله منشأت أخرى داخلة فى حدوده لم يتعرض لذكرها أحد واشتماله على منارتين يعزز أنه كان مسجدا كبيرا.[١]

بهذه الصورة زال جامع قوصون ، وضاعت معالم تصميمه الأصلى ، ولم يبق منه سوى بعض الجدران والزخارف المتباعدة والبوابتين الشمالية والشرقية ، واللتين أدركتهما لجنة حفظ الآثار العربية فأدرجتهما ضمن الآثار الإسلامية . فقد ورد فى تقرير اللجنة لسنة ١٨١٩م ان القومسيون قد فحص الباب البحرى لجامع قوصون بناء على طلب وزارة الأشغال العمومية وظهر له أن كان تابعا للجامع القديم ويليق حفظه[٢]

وفى تقرير اللجنة لسنة ١٨٨٦ م[٣] ورد ان الباب (باب الصحن القديم لجامع قوصون) والذى يقع فى النهاية الشرقية من الأماكن التى من حقوق هذا الجامع ، والذى كان يشغل مكانا فسيحا من الأرض ، قد شوهد منذ زمن تزحزح اكتافه ونشأ عنه شق من ابتداء عتبه الى عالى قبوه المشغول بالمقرنصات ، وقد سقط بعض أحجار العتب المصنوع من الرخام ، وزالت بعض مون الأحجار المكونة لقبوه ، ومع ذلك فحالة الباب لا تزال جيدة . وقد قرر القومسيون إزالة هذا العتب بالكلية وتركيبه جديدا كما هو عليه الآن ، ثم جددت اكتاف هذه البوابة فى عام ١٨٩٥ م[٤] .

الوصف المعمارى لجامع قوصون قديما :

زال جامع قوصون ، عدا بقايا قليلة، كما أوضحنا ، وفقدت وثائق وقف قوصون مما جعل من الصعوبة بمكان معرفة شكل الجامع الأصلى وتخطيطه .

وفى محاولة منا لرسم صورة قريبة لتخطيط هذا الجامع عند إنشائه ، استنادا على

---

١ - حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ١٤١.

٢ - محاضر لجنة حفظ الآثار العربية القديمة .المجموعة الثامنة عن سنة ١٨١٩م .القاهرة .١٩٨٢م .ص ٤٧

٣- المحاضر . جـ ٤ عن سنة ١٨٨٦ م . ص ٢٦ .

٤ - المحاضر . المجموعة الثانية عشرة عن سنة ١٨٩٥ م . ص ٧٠ .

ماوصل إلينا من أقوال المؤرخين والعلماء ، واعتمادا على البقايا القليلة التى تخلفت عن الجامع القديم ، لوجدنا ان جامع قوصون كان يتبع تخطيط المساجد الإسلامية الجامعة التى تتكون من صحن أوسط مكشوف تحيطه أروقة أربعة ، أى أن جامع قوصون كان يتبع طراز المساجد الاسلامية الأولى التى شيد على مثالها فى العصر المملوكى ، بشقيه، نماذج رائعة نذكر منها جامع الملك الظاهر بيبرس[١] (٦٥٥ : ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٦ : ٩٦م)وجامع الماس الحاجب [٢] (٧٣٠ / ١٣٢٩ - ١٣٣٠م) وجامع الناصر محمد بالقلعة [٣] (٧٣٥ هـ / ١٣٣٥م) وجامع الطنبغا المارداني[٤] (٧٤٠هـ / ١٣٤٠م) وجامع المؤيد شيخ[٥]

(٨١٨ - ٨٢٣ هـ / ١٤١٥ - ٢٠ م) وجامع الأشرف برسباى بالخانكاه[٦] (٨٤١هـ / ١٤٣٧م) . أما شكل الجامع الأصلى فقد وصفه prisse d,Avenns فقال إنه كان مربع الشكل ، يتكون من أروقة أربعة تطل على الصحن الكبير من خلال بائكات معقودة بعقود مدببة[٧] .

١- هذا الجامع خارج القاهرة انشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وتمت عمارته سنة ٦٦٧ هـ .
(المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ٢٩٩).

٢ - هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة . بناء الأمير الماس الحاجب سنة هـ .
(المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ٣٠٧) .

٣ - هذا الجامع بقلعة الجبل انشأه الملك الناصر محمد سنة ٧١٨ هـ ثم أخرجه فى سنة ٧٣٥ وبناء هذا البناء . وهذا الجامع متسع الأرجاء مفروش الأرض بالرخام ويحف صحنه رواقات من جهاته .
(المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٢١٢ و ٣٢٥) .

٤ - هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة . بناه الأمير الطنبغا المارداني الساقى سنة ٧٤٠ هـ
(المقريزى . الخطط جـ٢ ص ٣٠٨)

٥ ـ هذا الجامع بجوار باب زويله من داخله . انشأه السلطان المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى .
(المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٣٢٩)

٦ - كملت عمارته سنة ٨٤١ هـ . أنشأه السلطان الأشرف برسباى بخانقاه سرياقوس وجاء الجامع المذكور فى غاية الحسن (ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ١٥ ص ٨٥ - ٨٦).

٧ - op . cit. p . 107 .

وبتتبع ما تبقى من جامع قوصون من مداخل وحوائط ، استطعنا معرفة طول ضلع الجامع الأصلى ، فالمدخل الشمالى للجامع يبعد بحوالى ثلاثة وثلاثين مترا عن الجزء الباقى من حوائط الضلع الشرقى للجامع القديم ، فى حين يشغل المدخل مساحة قدرها أربعة أمتار ، ومن الطبيعى أن يكون طول الجزء الثانى من الواجهة حوالى ٣٣ م تقريبا (لوحة ١) حيث كان هذا المدخل يتوسط الضلع الشمالى الشرقى للجامع وبذلك فقد كان طول ضلع جامع قوصون القديم حوالى سبعين مترا ، أى أن مساحته الكلية كانت حوالى ٤٩٠٠ م أى أنه كان فعلا جامعا كبيرا (لوحة ٧) .

الواجهات :

من المحتمل ان جامع قوصون كان له واجهتان ، إحداهما جنوبية شرقية ، من المعتقد أنها كانت الواجهة الرئيسية للجامع ، فابن تغرى بردى حين تحدث عن هذا الجامع ، كما ذكرنا ، قال : إنه بالشارع الأعظم وبابه تجاه مصلى قتال السبع الموصلى[١] . ولقد كان من الطبيعى ان يجعل قوصون واجهة جامعه الفخم على هذا الشارع الذى سماه المقريزى قصبة القاهرة والذى يزدان بطوله بواجهات العمائر الفاطميه والأيوبية والمملوكية الرائعة .

وعلى ذلك فقد يكون مهندس جامع قوصون قد جعل لهذا الجامع واجهة تمتد من الطرف الشمالى الشرقى لوقف قوصون وتنتهى حيث المدخل بالطرف الجنوبى الشرقى لهذا الوقف ، وتضم داخل حدودها بناء الجامع ، الذى ارتد بعيدا عن هذا الجدار وعن المدخل الرئيسى له لمسافة ثمانين مترا . ونحن أن هذا الارتداد لهذه المسافة بعيدا عن الشارع الأعظم كان فى اعتقادنا لسببين أو إحتمالين أولهما :

إن قوصون قد أراد الابتعاد بجامعه عن مصلى الأموات الذى كان قتال السبع الموصلى قد أنشأه فى هذه المنطقة ، حيث أنه لو تم بناء واجهه الجامع على الشارع مباشرة لتقابلت الواجهتان ، حيث لم تكن يفصل بينهما سوى عدة امتار قليلة لاتجاوز الستة ، هى عرض الشارع ، وهى الآن المسافة بين مدخل جامع قوصون وبين واجهة مدرسة جانم البهلوان[٢]

١- النجوم الزاهرة . جـ٩ ص ٩٦ - جـ١٠ ص ٢٠٧ .

٢ - أنشأة الأمير جانم أحد الأمراء العشروات وهو قريب الأمير يشبك من مهدى الدورادار . أنشأها فى سنة ٨٨٣ هـ (السخاوى . تحفة الأحباب . ص ١٠٧ - ١٠٨).

التى شيدت فى موضع مصلى الأموات .

وثانيهما وهو الأقوى أن ارتداد بناء جامع قوصون خلف الشارع الأعظم كان سببه ان هذا الجزء الذى يشغل المساحة الواقعة على يمين الداخل من مدخل الجامع بشارع السروجية ، شرق بناء الجامع ، كان يشغله حمام قوصون وساقيه مجاورة له ، وهو الحمام الذى اشتراه قوصون من ورثة قتال السبع الموصلى سنة ٧٣٠ هـ بعد شروعه فى بناء الجامع وجدد عمارته فى نفس العام ومن المحتمل انه وقفه على جامعه فقد ذكر المقريزى ان حمام قتال السبع كان يقع فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة الى صليبة جامع ابن طولون ، وموضعها اليوم بجوار جامع قوصون[١] ، ويبدو أنه قد استحسن فكرة إنشاء حمام بجوار جامعه فكررها عند بناء جامعة بالقرافة سنة ٧٣٦ هـ .

وفى خريطة الحملة الفرنسية ورد ذكر ثلاث حمامات باسم قوصون بجوار الجامع اثنتان منها للرجال وواحدة للنساء ، ومن المعروف ان هناك اثنتين اشتهرتا بأسم حمام السروجية ، وهما بعطفة الحناء بشارع السروجية أما الحمام الثالث ، هى للرجال ، فقد جاءت فى الخريطة المذكورة بجوار الجامع من شرقية[٢] وهذه الحمام الأخيرة هى حمام قتال السبع التى كانت مجاورة لداره بحارة المصاعدة ، تلك الدار التى صارت فيما بعد جامع قوصون ، أى ان هذه المنطقة على يمين الداخل من مدخل جامع قوصون بشارع السروجية كانت مشغولة بالحمام وكانت وقفا ، ويبدو ان قوصون قد فشل فى شرائها قبل بناء الجامع ولذلك جاء بناء جامعه على النحو الذى تم عليه ، وان كان قد نجح بعد ذلك فى شراء هذه الحمام إلا أن ذلك لم يتم سوى بعد تمام بناء جامعه.

ويبدو ان هذه الحمام قد خرجت مع خراب منشآته الأخرى كالخانقاه والقصر ، فلم يفطن أحد من المؤرخين اليها ، وترك مكانها خاليا حتى تم بناء مساكن وحوانيت ومكاتب للأطفال عليه بعد عام ١٢٩٠ هـ وهو ما حدثنا عنه على باشا مبارك بقوله :

فى عام ١٢٩٠ هـ أخذ من الجامع جانب ، ثم عمل له رسم بمعرفتنا وجرى الشروع

---

١ - الخطط . جـ ٢ ص ٨٥ .

٢ - مربع p.7 رقم 101

فى تعميره من طرف الأوقاف ، ورسمت فيه مدرسة لتعليم الأطفال وبنيت بجواره مساكن وحوانيت موقوفه عليه[١].

ويفهم مما ذكره على مبارك ان الارض الواقعة حول جامع قوصون كانت لا تزال جارية فى أوقافه مما دعا الى استغلالها على الوجه الأمثل ، وهو بناء منازل وحوانيت عليها ووقف ذلك على الجامع .

ويؤكد لنا تلك الحقائق تقرير لجنة حفظ الآثار العربية لعام ١٨٨٦ م[٢] والذى جاء فيه ان باب الجامع يقع فى النهاية الشرقية من الأماكن التى من حقوق هذا الجامع ، بمعنى ان المنطقة الواقعة على يمين الداخل من مدخل الجامع بشارع السروجية والممتدة عمقا حتى حوائط الضلع الجنوبى الشرقى للجامع كانت ملكا لقوصون وإن كان ذلك ليس عند شروعه فى بناء الجامع ، وانما بعده ، وبالتالى فلم يكن بإمكان قوصون أن يشيد الجامع على الشارع الأعظم مباشرة اذ كانت هذه المنطقة يعلو أرضها بناء الحمام والساقية ، والتى كانت ملكا لورثة قتال السبع الموصلى ثم صارت فيما بعد ، أى فى أواخر عام ٧٣٠ هـ ، ملكا لقوصون بعد ان نجح بالتحايل فى الاستيلاء عليها[٣] .

ولقد أدى ارتداد بناء جامع قوصون خلف الشارع ، بهذا الشكل الذى وضع عليه ، ان تضاءلت المسافة بينه وبين بركة الفيل فصار يقع الى الشرق منها . وبذلك صار الجامع متوسطا بين الشارع الأعظم من جهة وبين بركة الفيل من جهة آخرى ، ونظرا لشهرة الجامع

---

١ - الخطط . جـ٥ ص ٢٠٠ .

٢ - المحاضر جـ ٤ عن سنة ١٨٨٦ . ص ٢٦ .

٣ - لما أخذ قوصون دار قتال السبع وهدمها وعمر مكانها هذا الجامع اراد أخذ الحمام وكانت وقفا ، فبعث الى قاضى القضاه الحنبلى يلتمس منه حل وقفها ، فأخرب منها جانبا وأحضر شهود القيمة فكتبوا محضرا يتضمن ان الحمام المذكورة خراب وكان فيهم شاهدا امتنع من الكتابة فى المحضر وقال مايسعنى من الله ان ادخل بكرة النهار فى هذه الحمام وأطهر فيها ثم أخرج منها وهى عامره وأشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم انها خراب . فشهد غيره وأثبت قاضى القضاه الحنبلى المحضر المذكور وحكم ببيعها فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع (المقريزى . الخطط . جـ٢ ص ٨٥) .

ولكثرة منشآت قوصون بهذه الجهة فقد عرفت بخط جامع قوصون[١].

اما الواجهة الثانية لجامع قوصون فقد كانت الواجهة الشمالية الشرقية ، التى تطل بقاياها حاليا على حارة درب الأغوات ، أما قديما فقد كانت تطل على فضاء واسع وطريق ممتد يعرف بدرب الأغوات (لوحة ٢) كان يصل ، عن طريق بعض العطف ، بين الجامع والشارع الأعظم من جهة ، وبينه وبين سكة الداوودية من جهة آخرى . فلم يكن يشغل هذه المنطقة آية منشآت هامة وقت بناء الجامع ، وجميع مابها حاليا يرجع الى العصرين العثمانى والحديث[٢] وكان يتوسط هذه الواجهة المدخل الشمالى لجامع قوصون (اثر ٢٠٢) .

المداخل :

لجامع قوصون مدخلان ، وهما الباقيان كما ذكرنا من أجزاء الجامع القديم ، احدهما يقع بحارة درب الأغوات (لوحة ٣) وهو المدخل الذى كان يتوسط الضلع الشمالى والشرقى للجامع . وهو مدخل بسيط أطلقت عليه بعض حجج الوقف المتأخره باب سر الجامع القوصونى[٣] .

وهذا المدخل مبنى من الحجر ويقع فى دخله معقودة بعقد مدبب ، يبلغ اتساعها حوالى أربعة أمتار وعمقها مترين ونصف ، ويتوسطها الباب الذى يبلغ اتساع فتحته ٢,٣٠م وعمقها ٤٥ سم وارتفاعه الحالى ٢,٣٠م ويعلو فتحة الباب عتب مستقيم مكون من صنجات حجرية معشقة باللونين الأحمر والأسود ، يعلوه عقد عاتق مكون من صنجات حجرية معشقه باللونين الأحمر والاسود ايضا (لوحة ٣) وبين العتب والعقد العاتق نفيس خال من الزخرفه . ويغلق على الباب مصراعان خشبيان خاليان من الزخرفة . ويتوج دخله المدخل عقد حجرى مدبب يحيطه إطار حجرى بارز (جفت) .

---

١ - كانت هذه المنطقة تعرف قبل بناء قوصون لجامعه بخط خارج الباب الجديد ثم صارت بعد إنشاء الجامع تعرف بخط جامع قوصون الى ات تغير اسمها فى التنظيم الجديد وصارت تعرف بالحلمية بعد ان شيد بها الخديوى عباس حلمى قصره . (على مبارك الخطط . جـ ٢ ص ١٤٢ - ١٤٣).

٢ - على مبارك . الخطط . جـ ٢ ص ١٤٢ .

٣ - حجة وقف بأسم شاهين أحمد أغا . مؤرخه فى عام ١٠٨٦ هـ ومحفوظه بارشيف وزارة الأوقاف رقم ١٩٣٩ . ص ١١ سطر ٤ .

ويؤدى هذا الباب الى دركاة صغيرة يبلغ أتساعها حوالى أربعة أمتار وعمقها ١,٥٠ وأرتفاعها ٢,٩٠ م حتى بداية العقد الذى يتوجها ، وتفتح هذه الدركاه على داخل الجامع من خلال عقد مدبب ، يزخرف نهاية جدرانه من الخارج حطتين من المقرنصات (لوحة ٨) ومن المعتقد ان هذا المدخل كان يفتح بابه مباشرة على البلاطة الوسطى من الرواق الشمالى الشرقى للجامع أما الآن فهو يفتح على فناء مستطيل الشكل فتحت به عدة شبابيك وعقود ، تطل بعضها على الأجزاء القديمة من حوائط الضلع الجنوبى الشرقى للجامع القديم (لوحة ٨).

أما المدخل الثانى لجامع قوصون فهو الواقع بشارع السروجية (أثر ٢٢٤) وهو يتصدر العطفة المعروفة بعطفة المحكمة وهو مدخل فخم (لوحة ٥) ، من المؤكد انه كان المدخل الرئيسى لجامع قوصون . وهو يتكون من كتله بنائية من الحجر الأبلق باللونين الأبيض والاحمر يتوسطها المدخل وهو عبارة عن دخله يبلغ اتساعها ٧,٥٠م وعمقها ٥ م يزخرف جانبيها عضادتين ، يعرض ٣٨ سم ، تتضمنان نصا كتابيا بالخط النسخ المملوكى ، محصورا بين افريزين من الرخام الأبيض بعرض ٢٠ سم نصه :

أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك بكرم الله تعالى العبد الفقير الى الله تعالى قوصون الساقى الملكى الناصرى - فى ايام مولانا السلطان الملك الناصر أعز الله أنصاره وذلك فى سنة ثلاثين وسبعمائة (لوحة ٩) .

ويتصدر المدخل الباب ويبلغ اتساع فتحه ٣,٥م وعمقها ٢,٤٠م . ويعلو الباب عتب رخامى مكون من صنجات معشقة باللونين الأبيض والاسود [١] يعلوه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة من الرخام الأبيض والاسود يحصران بينهما نفيس رخامى حفرت به زخارف نباتية مورقة حفرا بارزا ، وقوامها ورقة نباتية ثلاثية كأسية مثقوبة من الوسط تخرج منها لفائف وتفريعات نباتية (لوحة ٥) .

ويتصدر دخلة المدخل من أعلى نافذة مستطيلة كان يغشيها قديما حجاب من الخشب الخرط[٢] . ويتوج دخله المدخل صدر مقرنص يزخرفه أربع حطات من المقرنصات ذات

١ - جددت لجنة حفظ الآثار العربية هذا العتب سنة ١٨٨٦ هـ كما جددت أكتاف البوابة سنة ١٨٩٥ هـ

٢ - حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ١٤٠ .

الدلايات . وكان يغلق على هذا الباب مصراعان خشبيان مغشيان بالنحاس أودعا دار الآثار العربية[١] ، كما كان يعلوه إحدى منارتى الجامع[٢].

ويؤدى هذا المدخل الى دركاه مستطيلة يغطيها قبو نصف دائرى ، لاشك أنها كانت جزءاً من الدهليز الذى كان يوصل الى الجامع . فهذا المدخل كما ذكرنا ، لم يكن مفتوحا فى أحد أضلاع بناء جامع قوصون ، وانما كان بارزا وبعيدا عن الضلع الجنوبى الشرقى للجامع الأصلى لمسافة ثمانين مترا تقريبا ، ومن المعتقد ان هذا الدهليز كان ينتهى بالقرب من الضلع الجنوبى الشرقى ، ولكن لايفتح عليه ، ثم ينكسر قليلا باتجاه الضلع الجنوبى الغربى للجامع ثم يعود لاستقامته لمسافة ١٧,٥م تقريبا حيث ينتهى الى الضلع الجنوبى الغربى للجامع بباب بارز عن سمت الجدار بحوالى ثلاثة أمتار .، كانت تعلوه مئذنة ، وهى زالت عند فتح شارع محمد على ، وكان يشغل المنطقة على يسار هذا الباب مرافق الجامع ، التى زالت ايضا للسبب المذكور سنة ١٨٧٦م.

وبهذا الشكل كان هذا الباب يفتح على صحن الجامع ، مرورا بالرواق الجنوبى الغربى ، ويقع فى مواجهة مدخل الجامع الذى يتوسط الواجهة الشمالية الشرقية والواقع بحارة درب الأغوات ، فقد عهدنا فى مساجد العصر المملوكى ان يقع باب سر الجامع فى مواجهة الباب الرئيسى له ، ومن المستبعد ان يكون مدخل شارع السروجية كان ينتهى إلى رواق القبلة فقد وصف لنا prisse d,Avennes هذا الرواق بالتفصيل ولم يشر إلى وجود أحد أبواب الجامع به ، كما ان العطفة الحالية ، دهليز المدخل سابقا ، مازالت تحتفظ بنفس الشكل الذى أشرنا اليه (لوحة ١) . فهذا الممر الذى يبلغ اتساعه ٣,٥ م وطوله ٨٠ م هو الذي صار فيما بعد العطفة المعروفة حاليا بحارة المحكمة بشارع السروجية ويتصدرها مدخل الجامع ، وتربط حاليا بين شارعى السروجية والقلعة (محمد على سابقا) .

وفى اعتقادنا ان هذا الدهليز قد ظل على حاله ، منذ بناء الجامع أى ممرا يغلق على مدخله باب ضخم لايفتح الا فى اوقات الصلاة ، زمنا طويلا، ولم يتطور إلى الشكل الذى هو

---

١ - هذا الباب لا أثر له الآن .

٢ - حسن عبدالوهاب . نفس المرجع والصفحة .

عليه الآن سوى بعد هدم الجامع وإعادة بنائه . ثم قبل ذلك عند فتح شارع محمد على ، الذى نراه جليا من خلال خريطة كتاب وصف مصر (لوحة ٢) والتى جاءت فيها عطفة المحكمة عبارة عن ممر غير نافذ تنتهى حدوده قرب الجامع وليس كما هو الحال الآن .

الجامع من الداخل:

كان جامع قوصون يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيطه أروقة أربعة أكبرها وأعمقها كان رواق القبلة تشرف عليه من خلال بائكات تحيطه من الجهات الأربع ، وتتكون من عقود مدببة ترتكز على مجموعة من الأعمدة الرائعة [١] .

الاروقة :

أهمها بالطبع كان رواق القبلة وكان يقع بالضلع الجنوبى الشرقى للجامع ، على شكل مستطيل قسمت مساحته الى اربع بلاطات تقريبا موازية لجدار القبلة بواسطة بائكات معقودة بعقود مدببة ومحمولة على اعمدة رخامية وحجرية وكان يتصدر رواق القبلة المحراب الذى كانت تعلوه قب بديعة الشكل مرتكزة على أعمدة[٢] وقد فتح بجدران هذا الرواق ، شأنه شأن أروقه الجامع جميعا ، نوافذ جصية مفرغة (لوحة ٤) ذات طراز جميل تعلو افريز خشبى يحيط بجدران الرواق من الداخل[٣] .

اما سقف هذا الرواق فقد كان قطعا من الخشب المزخرف والمذهب شأنه فى ذلك شأن عمائر القاهرة فى العصر المملوكى.

وهذا الرواق كان يفصله عن صحن الجامع سياج من الخشب الخرط (لوحة ١٠) المحفور بذوق فنى رفيع[٤] يفتح على الصحن من خلال باب كانت تعلو فتحته لوحة خشبية تبلغ أطوالها

---

١ - Prisse d, Avennes . op. cit. p. 107.

٢ - Idem

٣- Idem

٤ -Id يعد سياج جامع الطنبغا الماردانى أقدم سياج باق فى الآثار العربية بمصر أو هو الثانى إذا عددنا سياج مسجد ال ملك الجوكندار سنة ٧٣٢ هـ يليهما سياج قايتباى بالجامع الأزهر .
(حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ١٤٩)

١٣٠ سم × ٥٠ سم مكتوبه بالخط النسخ البسيط الجميل ، وقد اختفت هذه الكتابة مع الجامع منذ زمن بعيد . وكانت تتضمن أربعة أسطر نصها :[١]

بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله .... (الآية) أمر بإنشاء هذا الجامع العبد الفقير إلى الله تعالى السيفى قوصون الملكى الناصرى فى أيام مولانا الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون وذلك فى شهور سنة ثلاثين وسبعمائه من الهجرة .

وكان رواق القبلة ، وكذلك الجامع ، غنيا بزخارفه كما كان حسن التأثيث فقد كان يضم منبرا خشبيا رائعا وكرسيين للمصحف ،تنورا ضخما من البرونز يبلغ إرتفاعه حوالى ثلاثة أمتار [٢]

أما الأورقة الجانبية الثلاثة فمن المعتقد أنها تتكون من بلاطتين ، وتظل جميعها على صحن الجامع من خلال بائكات معقودة بعقود مدببة شأنها فى ذلك شأن رواق القبلة . كما فتحت بجدرانها نوافذ جصية مفرغة.

المآذن :

ذكر المقريزى فى خططه[٣] أن رجلا من أهل تبريز قد تولى عمارة منارتى جامع قوصون ، وهذا البناء أحضره الأمير ايتمش المحمدى[٤] معه فعملها على منوال مآذن تبريز[٥] اى ان خناك مهندسا فارسى الأصل قد قدم إلى القاهرة سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٢٠ م خصيصا لمباشرة بناء هذا الجامع[٦] وأنه قد بنى مآذنه على طراز مآذن تبريز .

١- Van Berchem. op. cit. p. 177

٢- Prisse d, Avennes 10 - cit

٣ - جـ ٢ ص ٣٠٧ .

٤ - هو الأمير ايتمش بن عبدالله المحمدى نائب صفد . كان من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ومن خواصه . (ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة . جـ ٩ ص ٣١٠)

٥ - تبريز : أشهر بلدة بأذربيجان . وهى أم ايران جميعا لتوجه القاصد اليها وبها محط رحال التجار والسفار (القلقشندى . المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥٧) .

٦ - Louis Hautecoeur & Gaston wiet. Les mosquees du Caire . paris. 1932. Texte. p. 129

ويرى البعض ان هذه المآذن ، والتى زالت تماما ، يمكن تخيل شكلها من شكل منارة خاتقاه قوصون اذ يجوز ان يكون مهندس الجامع هو الذى قام ببنائها أيضا . كذلك يحتمل ان يكون طرازها على مثال منارتى مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة المنشأة سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ م قد غشيت قمتهما بالقاشانى . ونظن الى حد كبير ان بناءهما كان فارسيا أيضا ، بل لعله البناء التبريزى[١] .

وهذا البناء الفارسى قطعا لم يأت الى القاهرة لبناء جامع قوصون ثم العودة لبلاده ولكن الراجح انه استمر بالقاهرة وقام بإنشاء بعض مساجدها ، وعليه فلا يستبعد ان يكون بعض النماذج الموجودة الآن فى القاهرة كانت تبع فى تصميمها وفى شكل مآذنها جامع قوصون[٢]

ومن المحتمل ان مآذن جامع قوصون كانت شديدة الشبه بمآذن جامع الملك الناصر محمد بالقلعة[٣] التى زينت أسفل المبخرة ، برقبة زينت ببلاطات خزفيه ملونه وان الاخيرة هى التى بنيت على طراز مآذن جامع قوصون ، فإذا كان استخدام الخزف فى تزيين وزخرفة المآذن ، والتى كانت طريقة معروفة ومتبعة فى فارس فى القرن الثالث عشر الميلادى ونقلها معه الى القاهرة البناء التبريزى الذى شيد جامع قوصون[٤] وما دام قد بنى هذا البناء مآذن جامع قوصون على مثال مآذن تبريز ، فمن المنطقى ان تكون مآذن هذا الجامع أول أمثلة هذا الشكل الجديد الذى اقترن ظهوره فى مآذن القاهرة بوصول هذا البناء التبريزى اليها .

ولقد ذكرت المصادر ان هذا البناء قد بنى لجامع قوصون مئذنتين ، وإن كنا نرى ان عددها كان ثلاثا وليس اثنتين[٥] فقد كانت هناك مئذنة تعلو المدخل بعطفة المحكمة بشارع

---

١ - حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ١٤١ .

٢ - Haut & Wiet. op. cit. p. 129

٣ - د. فريد شافعى . العمارة العربية الاسلامية . ماضيها وحاضرها ومستقبلها . الرياض . ص ١٦٤- ١٦٥.

٤ - Haut & Wiet. op. cit. p. 299

٥- مثل جامع السلطان حسن الذى كان يشتمل على ثلاث ماذن - كما نجد المصادر قد اجمعت على ان لجامع المؤيد شيخ مآذنتان فى حين كان للجامع ثلاث مآذن (حسن عبدالوهاب . المرجع السابق . ص ٢١٣).

السروجيه ومن المعتقد انها سقطت على اثر احدى الهزات الأرضية التى ضربت مدينة القاهرة بعد بناء الجامع بفترة قصيرة[١] كما كانت هناك مئذنة بالضلع الجنوبى الغربى للجامع ، تلك هى التى زالت مع هذا الضلع عند فتح شارع محمد على [٢] سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٦م . أما الثالثة فقد كانت تعلو المدخل بالضلع الشمالى الشرقى للجامع والتى سقط الجزء العلوى منها سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م فهدم جانبا من بوائك الجامع ، ومال الجزء السفلى منها على الأماكن المجاورة للجامع بدرب الأغوات[٣] . وقد ذهب البعض[٤] الى ان المئذنة الأخيرة هى نفسها المئذنة التى زالت عند فتح شارع محمد على ولكننا نستبعد ذلك للأسباب التالية :

١ - ان حارة درب الأغوات بأول شارع السروجية ، وليس شارع محمد على ، وهى تتصل بعطفة اباظة المتصلة بعطفة القيسونى والشيخ عبدالله بشارع محمد على ، وبها جامع قوصون وله بابان أحدهما بهذه الحارة[٥] وهذا الباب يقع بالضلع الشمال الشرقى للجامع وليس الضلع الجنوبى الغربى ، وهذا يعنى ان المئذنة ، مادامت قد سقطت على المنازل بحارة درب الأغوات فهى قد سقطت على جزء من الضلعين الشمالى الشرقى والشمالى الغربى وليس على الضلع الجنوبى الغربى لبعد المسافة بين هذا الضلع وبين حارة درب الأغوات .

٢ - ان المئذنة كانت كاملة وباقية وقد دون على قاعدتها رقم الجامع فى خريطة الحملة الفرنسية وذكر Van Berchem انها قد زالت مع فتح شارع محمد على[٦] .

٣ - ان على باشا مبارك عندما تحدث عن فتح الشارع فى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٦ م قال : زالت مئذنة جامع قوصون وهذا يعنى أنها كانت باقية بكاملها وليس جزء منها .

٤ - ان لجنة حفظ الآثار عندما عاينت الجامع سنة ١٨١٩هـ ، أى بعد سقوط المئذنة

---

١ - prisse d, Avennes. op. cit. p. 107.

٢ - على مبارك. الخطط . جـ ٥ ص ٢٠٠.

٣ -الجبرتى نفس المصدر والجزء . ص ٤٠٥.

٤- حسن عبد الوهاب . المرجع السابق . ص ١٤٠.

٥ -على مبارك. الخطط . جـ ٢ ص ١٤٢.

٦ - Van Berchem. op. cit. p. 177

بحوالى ثمانية عشر عاما ذكرت ان البوابة بحارة درب الأغوات كانت تتبع المسجد القديم لقوصون وهذا يعنى ان اللجنة قد عثرت على البوابة دون بوائك الجامع وذلك لأنها كانت قد تهدمت مع سقوط المئذنة سنة ١٨٠١م.

٥ - ان prisse d,Avennes عندما عاين الجامع قبل سنة ١٨٧٠ م أى قبل ازالته ذكر أنه قد تبقى من الجامع الإيوان الشرقى بكامله وبعض بوائك الضلع الجنوبى ، والأخيرة زالت مع المئذنة عند فتح الشارع وبهذا الشكل ، أى بوجود ثلاث مآذن بجامع قوقون فقد كان هناك نوع من التناسق الجميل والرشاقة الرائعة بين توزيع مآذنه ، فقد كانت هناك واحدة تتوسط الضلع الشمالى الشرقى تقابلها الثانية متوسطة الضلع الجنوبى الغربى فى حين ترتفع الثالثة فوق مدخل الجامع بشارع السروجية ، فى منتصف المسافة تقريبا بين المئذنتين الأخريين .

الدراسة التحليلية :

يعد جامع قوصون من أقدم مساجد مصر الجامعة فى العصر المملوكى ، وقد لحق به ركب الإزالة فى الوقت الذى احتفظت فيه أغلب المساجد العاصرة له واللاحقة بأغلب تفاصيلها المعمارية والزخرفية . وكان ذلك راجعا لما تعرض له الجامع من نكبات متتالية ساهمت فى ان يدب التلف سريعا الى اجزائه . ثم كانت النكبة الكبرى بزوال بنيانه ، ورغم ذلك فإننا نجد أنه من الأهمية بمكان معرفة شكل وتخطيط جامع قوصون عند إنشائه وذلك لأهمية ماحواه من عناصر معمارية وزخرفية جديدة.

فجامع قوصون لم يحظ بإهتمام الباحثين ، رغم أهميته، ولم يشر اليه أحد مما تناول تطور عمارة المسجد فى العصر المملوكى ، بل أغفله الكثيرون ، ولعل ذلك كان راجعا لصعوبة البحث فى موضوعه حيث اختفى الجامع الأصلى ، إلا من بقايا قليلة بالاضافة الى فقد وثائق وقف قوصون مما جعل من العسير تخيل أو معرفة شكل الجامع الأصلى.

وفى اعتقادنا ان جامع قوصون كان من أجمل مساجد مصر الجامعة فى العصر المملوكى البحرى، بالإضافة الى أهميته المعمارية كأحد أمثلة المساجد المبكرة فى هذا العصر ، فهو يمثل حلقة هامة من حلقات تطور عمارة المسجد الجامع فى العصر المملوكى اذ يعد ثانى

الأمثلة بعد جامع الملك الظاهر بيبرس ، معاصرا لجامع الماس الحاجب ، الذى شيد فى نفس العام ، أى فى عام ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ - ١٣٣٠ م ، بالإضافة الى ماحواه من عناصر معمارية وزخرفية أرجعتها بعض المراجع الى جامع قوصون حيث كان أول ظهورها له مما يؤكد أن جامع قوصون كان مثالا احتذى به فى بناء بعض مساجد القاهرة اللاحقة له.

وبعد دراستنا لجامع قوصون يتضح لنا ما يلى :

١ - ان جامع قوصون كان يمثل مرحلة هامة من مراحل تطور عمارة المسجد الجامع بالقاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية ، بل كان حلقة أساسية وأولية ، فهو مرحلة انتقال بين المساجد الضخمة الممثلة فى جامع الظاهر بيبرس الي مساجد الأقل ضخامة والتى اقتضتها فيما بعد طبيعة المكان مثل جامع الماس الحاجب والطنبغا الماردانى وغيرهما .

٢ - ان بعض المميزات والعناصر المعمارية والزخرفية والتى ظهرت فى مساجد القاهرة فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى والتى تزامن ظهورها مع وصول المهندس الفارسى الذى باشر بناء جامع قوصون ، كان أول ظهورها قطعا فى هذا الجامع ، فظاهرة تزيين المآذن ورقاب القباب والأفاريز بالبلاطات الخزفية ، والتى استخدمت في تزيين مآذن جامع الناصر محمد بالقلعة سنة ٧٣٥ هـ وفى تزيين شبابيك مداخل جامع الماردانى وفى تزيين الشرفات المسننة التى تتوج أروقته الجانبية الثلاثة سنة ٧٤٠ هـ . وفى تزيين رقاب القباب فى ضريح طشتمر سنة ٧٣٥ هـ وفى مسجد أصلم البهائى سنة ٧٤٥ هـ وفى ضريح خانقاه خوند طغاى سنة ٧٤٩ هـ ، لاشك انها قد نفذت قبل ذلك فى تزيين وزخرفة جامع قوصون ، إذ كان من الطبيعى ، مادام قد نقلها مهندس جامعه عند قدومه الى القاهرة سنة ٧٣٠ هـ ان يكون جامع قوصون هو أول ما استخدمت فيه الطريقة الجديدة. وهذا ما ذهب اليه كل من Hautecoeur Wiet عندما تحدثا عن هذه العناصر الزخرفية وظهورها فى عمائر القاهرة فى العصر المملوكى .

ويؤيد ظهورها فى جامع قوصون ما ذكره prisse d, Avennes من ان رواق القبلة بجامع قوصون كان شديد الثراء بأثاثه وزخارفه ، وكذلك باقى أروقة الجامع مما يؤكد ان ما رأيناه فى العمائر المملوكيه اللاحقة لبناء جامع قوصون ، قد شهد الجامع ظهورها به قبل

غيره.

٣ - ان ظاهرة السياج الخشبى الفاصل بين رواق القبلة وبين صحن الجامع ، تلك الظاهرة التى رأيناها فى جامع الطنبغا الماردانى سنة ٧٤٠هـ قد سبق ظهورها فى جامع قوصون . فقد ذكرت المراجع ان رواق القبلة فى هذا الجامع كان يفصله عن الصحن سياج من الخشب الخرط المحفور بذوق جميل ، يفتح على صحن الجامع من خلال باب يتوسطه يعلوه لوحة خشبية تتضمن نصا تأسيسيا بالخط النسخ ، وهذا يعنى ان هذه الظاهرة كان أول ظهورها فى جامع قوصون سنة ٧٣٠ هـ .

٤ - ان جامع قوصون كان يحوى ثلاث مآذن وليس اثنتين كما ذكرت المصادر ، ومن المحتمل ان المئذنة الثالثة قد سقطت بعد بناء الجامع بفترة وجيزة ولذلك لم يعاينها أحد من المورخين مثل المقريزى أو ابن تغرى بردى.

٥ - ان ظاهرة المدخل البارز عن سمت الواجهة ، سواء أكان ظاهرة معمارية جديدة أو ضرورة أوجبتها بعض الظروف الخاصة بالمكان فهى ظاهرة رائعة ، ويعد مدخل جامع قوصون مثلا رائعا للمداخل المملوكية البارزة ، ومن المرجح ان بعض مهندسى مساجد القاهرة قد حاولوا مضاهاتها ولكنها جاءت على نطاق ضيق وبصورة أصغر كثيرا ممثلة فى مداخل جامع الناصر محمد بالقلعة وجامع الطنبغا الماردانى.

وقد يكون هذان الجامعان قد جاءا فى شكلهما العام وفى تفاصيلهما المعمارية والزخرفية صورتان لجامع قوصون فإذا حاولنا مقارنة التخطيط لوجدنا ثلاثتهما قد أخذوا نفس الشكل والتصميم فجامع الناصر محمد بالقلعة والذى شيده عام ٧١٨ هـ ثم خربه وأعاد بنائه عام ٧٣٥ هـ وهو ما علله البعض بأن بناء الجامع الأول لم يرق للناصر محمد فهدمه وأعاد بناءه بشكل جديد ، فجاء بصورته الأخيرة والحالية على شكل بناء مربع يتكون من صحن أوسط ، مستطيل الشكل ، تحيطه أروقة أربعة أكبرها رواق القبلة المكون من أربع بلاطات ، بينما يتكون كل من الاروقة الثلاثة الأخرى من بلاطتين فقط ، وتوجد به قبه تعلو المنطقة المربعة أمام المحراب . وللجامع مدخلان بارزان عن سمت الواجه ومئذنتان.

أما جامع الطنبغا الماردانى فلا يخرج عن الشكل الذى اتخذه جامع الناصر محمد

بالقلعة وبذلك جاءت الجوامع الثلاثة متطابقة من ناحية الشكل والتخطيط.

وفى اعتقادنا انه اذا كانت المصادر والمراجع قد اطنبت وأجمعت على ان جامع المارداني كان من أجمل وأروع مساجد مصر في القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ، فإننا نرى ان جامع قوصون لم يكن يقل عنه روعة وجمالا ، بل قد يزيد ، فليس من المقبول ان نتخيل جامع قوصون أقل من جوامع مصر ثراء وجمالا وبهاءا ، فمنشآته تنطق بثرائها وهو بلا شك يعكس ثراء صاحبها والذى كان من الطبيعى ان يظهر جليا فى منشآته التى خلفها بمدينة القاهرة.

وبعد البحث يتبين لنا ان جامع قوصون كان مثلا رائعا من أمثلة العمائر الإسلامية في عصر أزدهارها وتألقها وشاهدا على تقدم عمارة المسجد في العصر المملوكى ، وأرجو من خلال هذا البحث ان نضيف الى دراسة الآثار الاسلامية أثر فريدا ، لو قدر له البقاء لتضاهى عمائر ومساجد مصر الرائعة فى ذلك العصر .

لوحة (١)

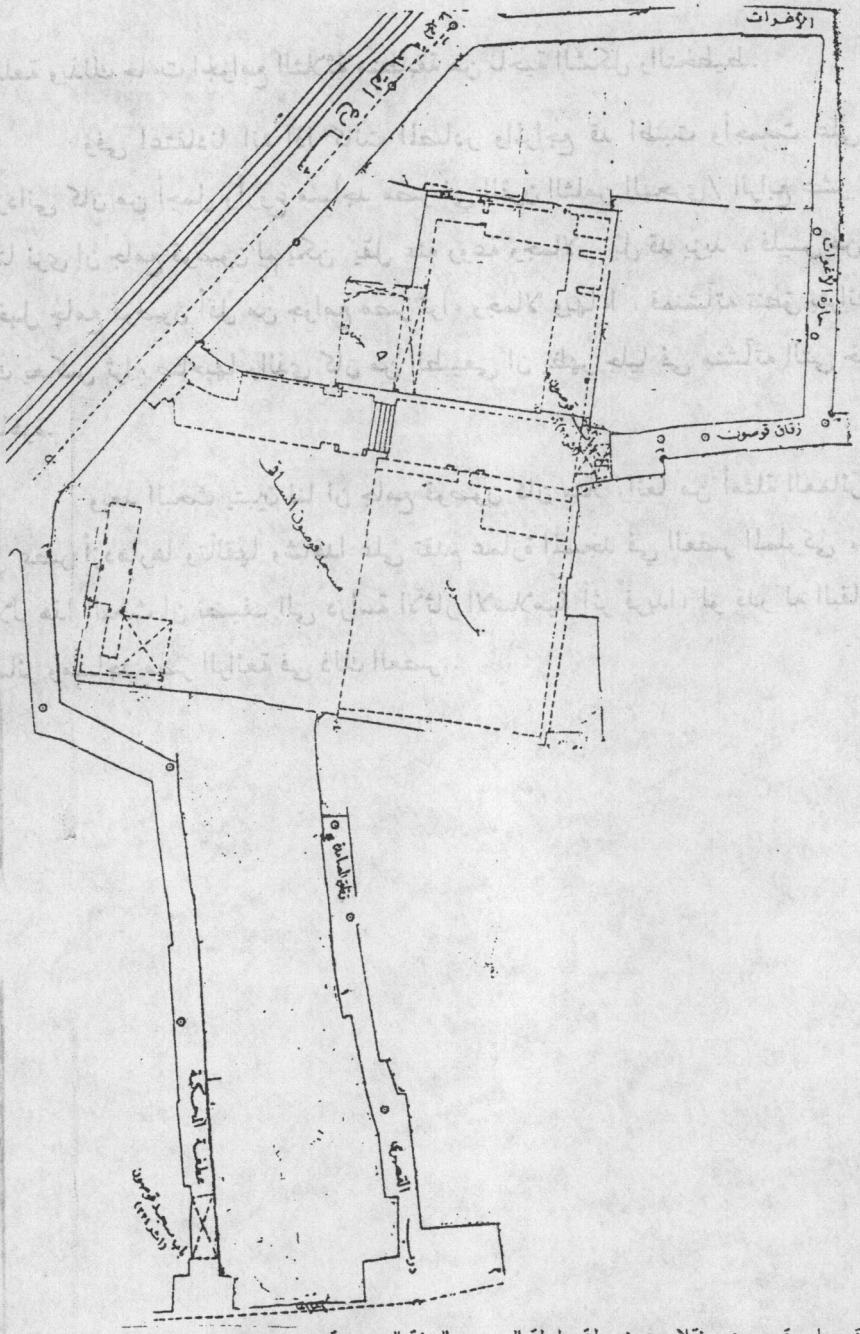

خريطة لموقع جامع قوصون . نقلا عن خريطة سلسلة المدن . الهيئة المصرية العامة للمساحة ١٩٣٧ م .

لوحة (٢)

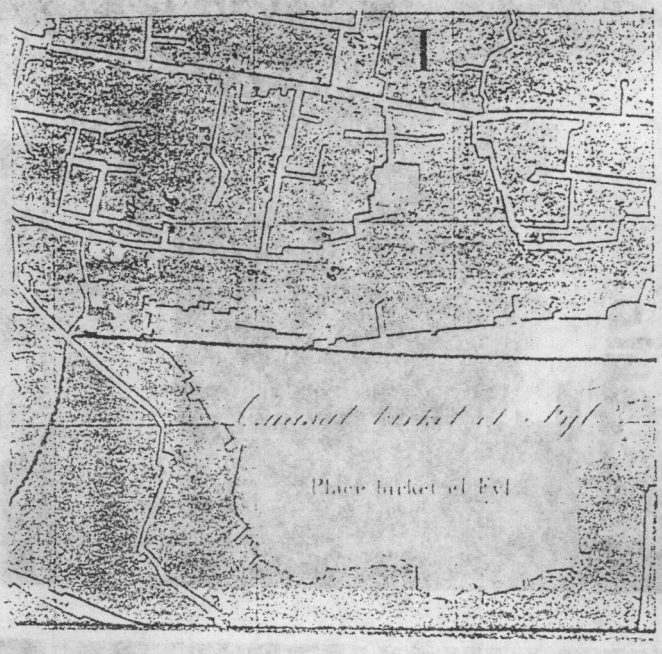

موقع الجامع قديما . خريطة الحملة الفرنسية من كتاب و صف مصر

حارة المصامدة

لوحة (٣)

مدخل الجامع بحارة درب الأغوات .

بقايا الشبابيك الجصيه بالضلع الجنوبى الشرقى لجامع قوصون .

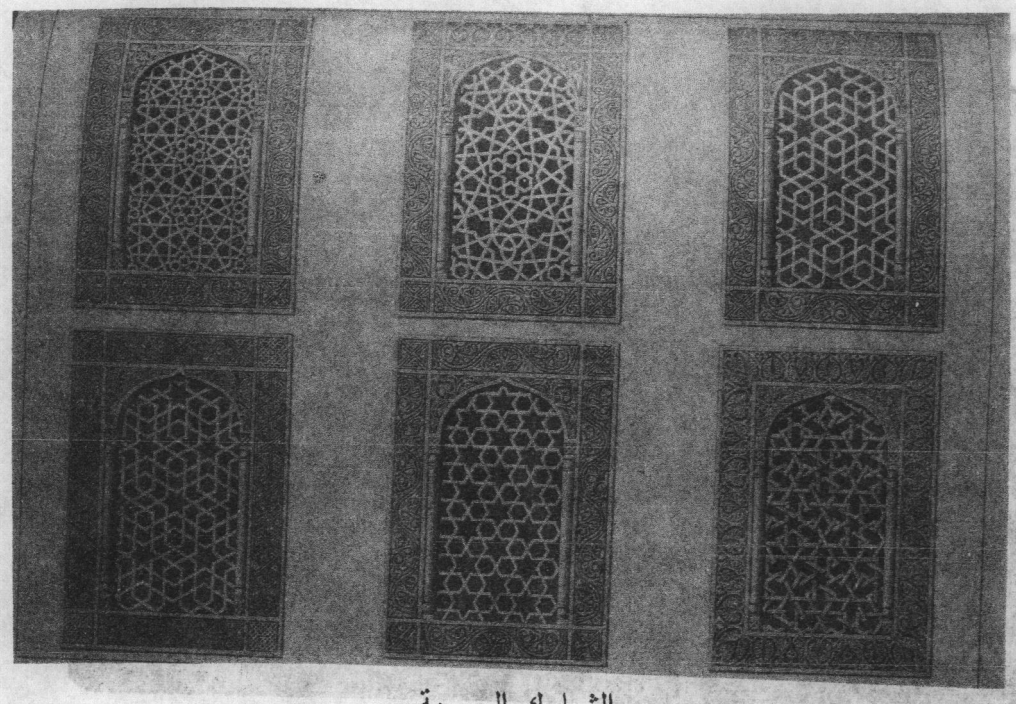

الشبابيك الجصية .

نقلا عن Prisse d'avennes

(لوحة ٥)

مدخل الجامع بعطفة المحكمة بشارع السروجية .

(لوحة ٦)

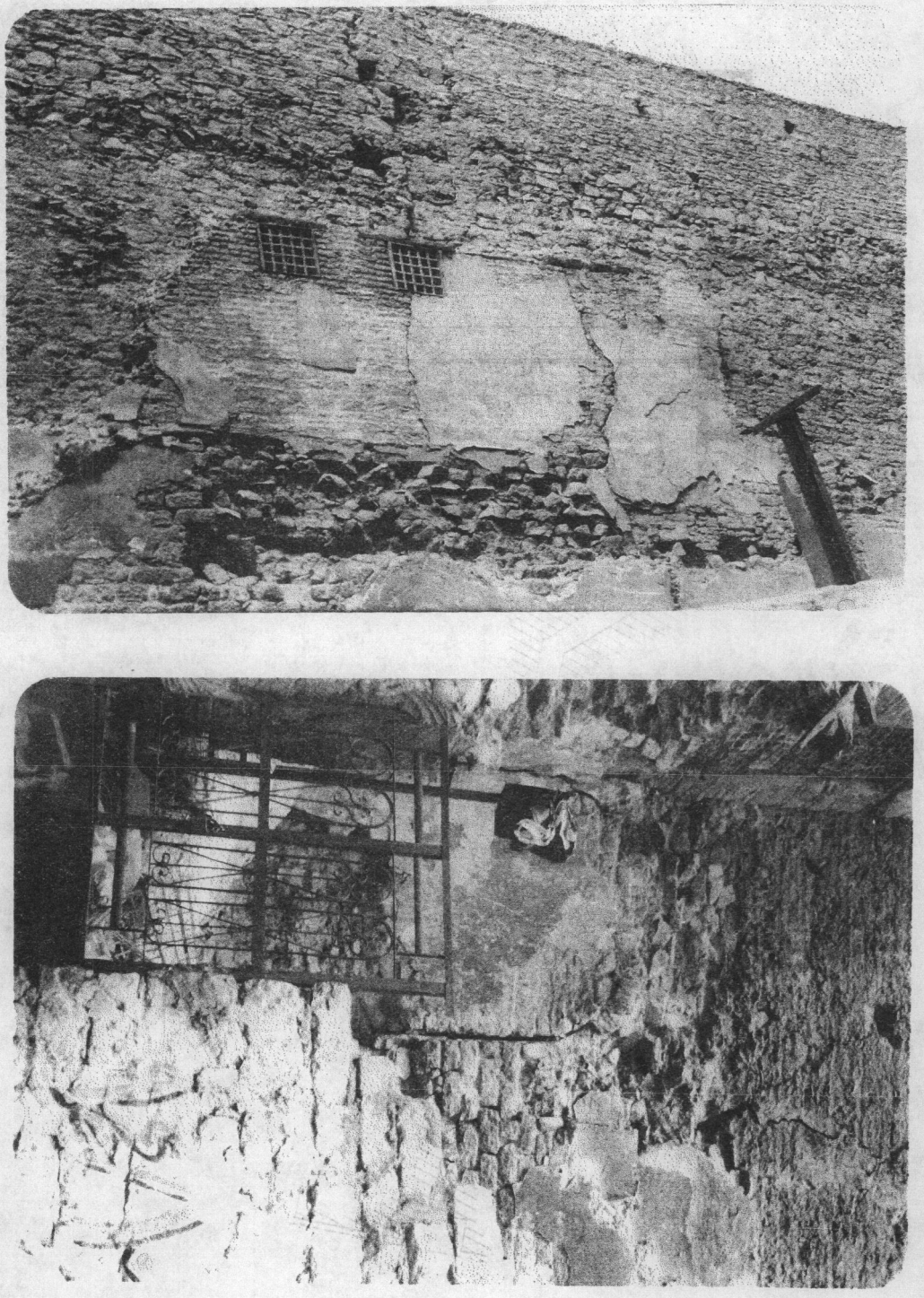

بقايا حوائط الرواق الجنوبى الشرقى و يظهر بها آثار بعض العقود و بقايا النوافذ

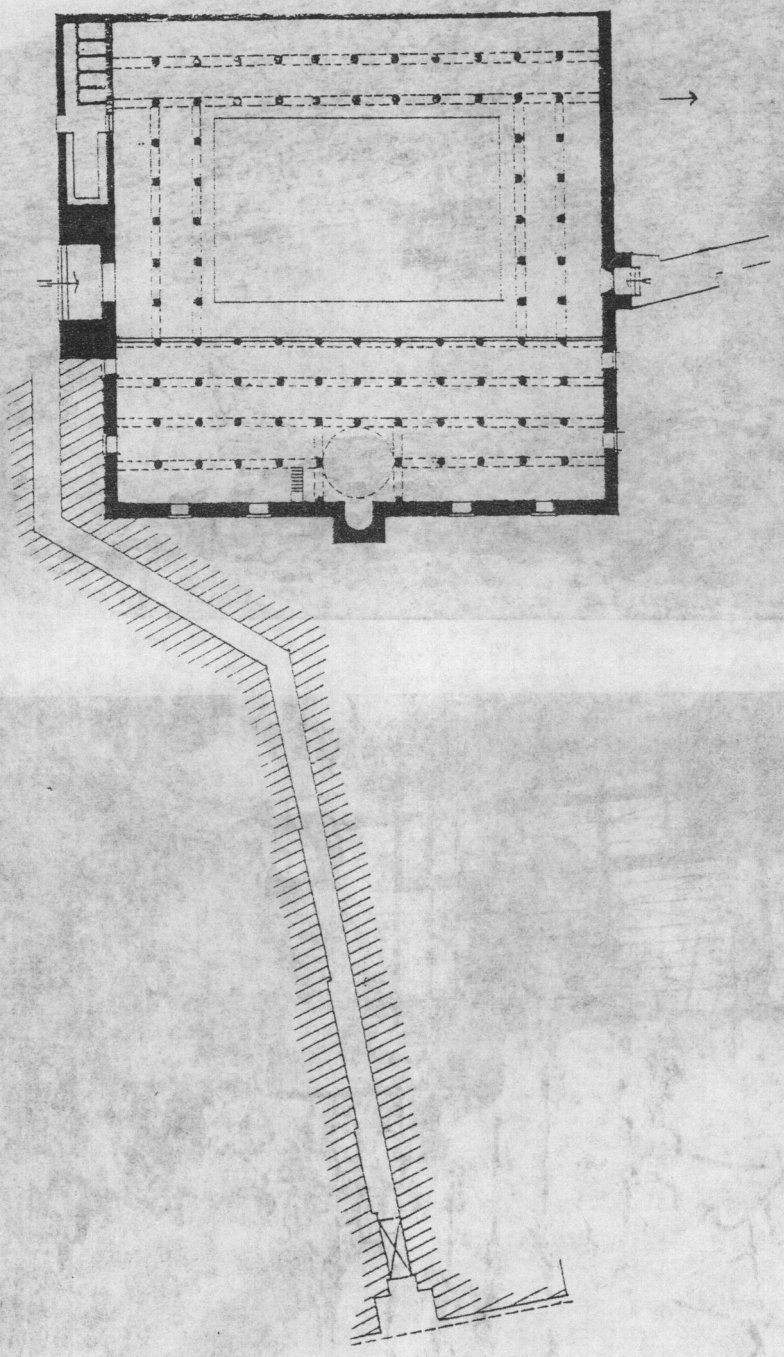

مسقط أفقى . رسم تخيلى لتخطيط جامع قوصون عند إنشائه . من عمل الباحثة
مقياس الرسم ١ : ٥٠٠

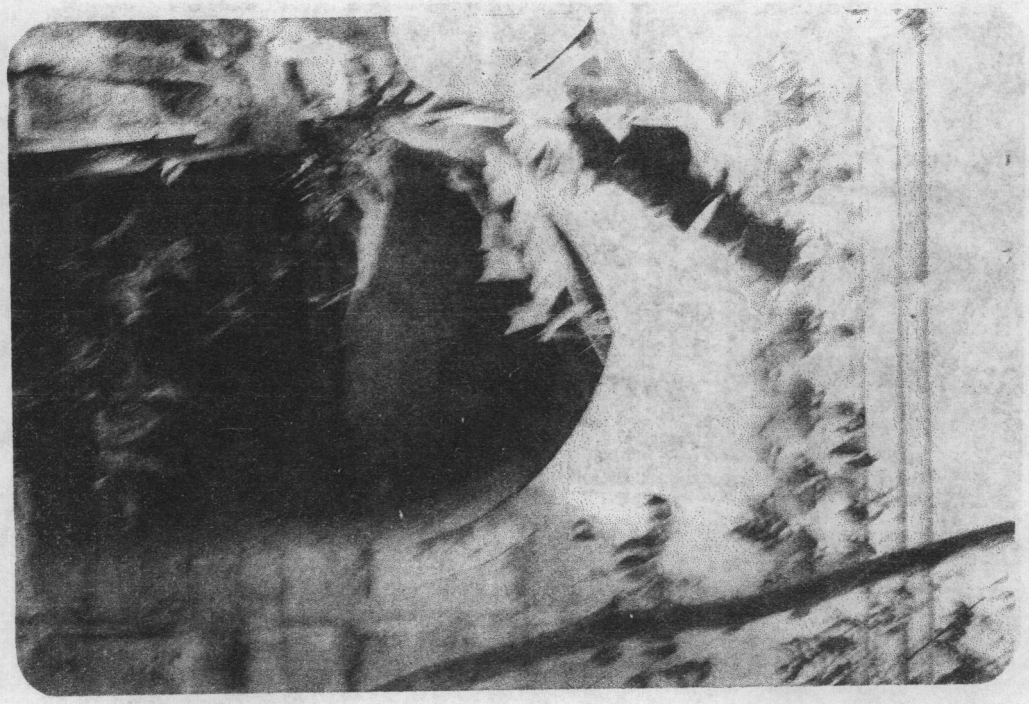

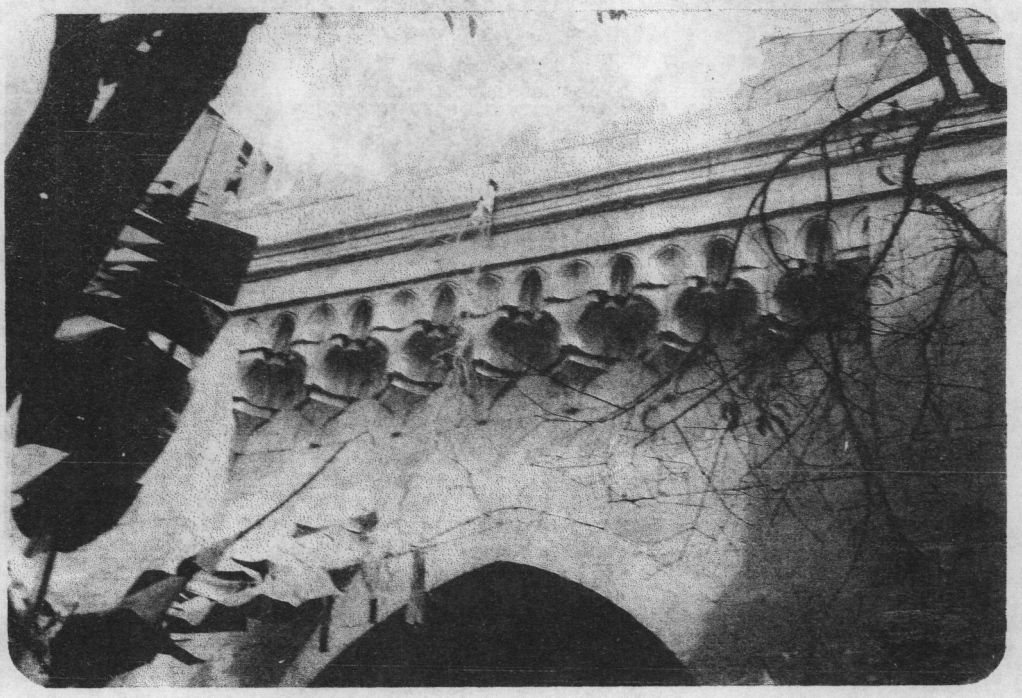

دركاة مدخل الجامع بحارة درب الأغوات .

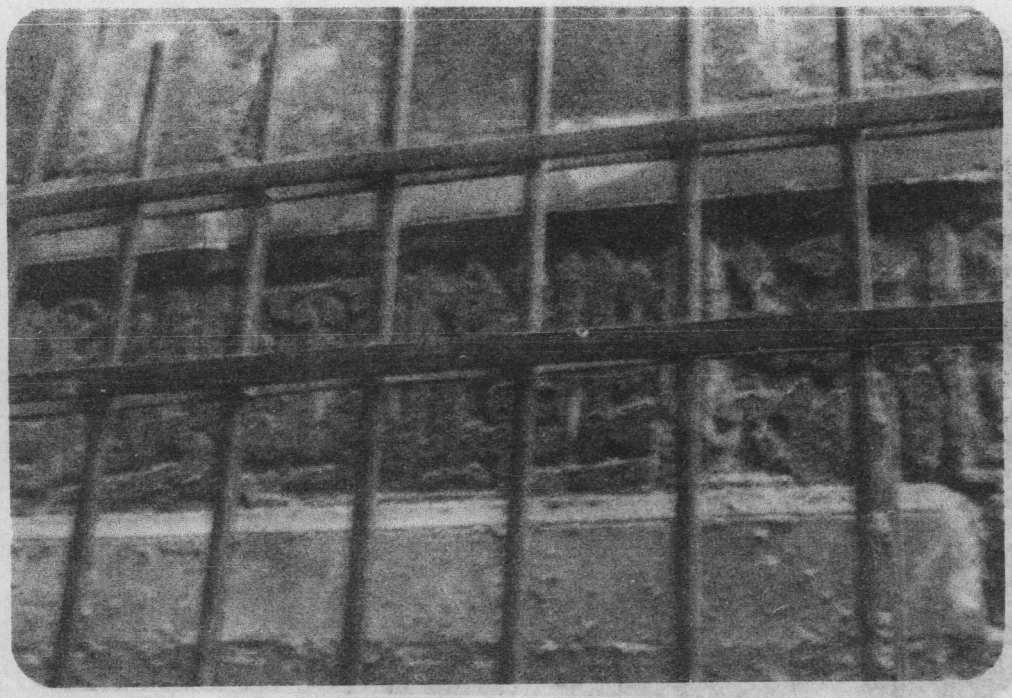

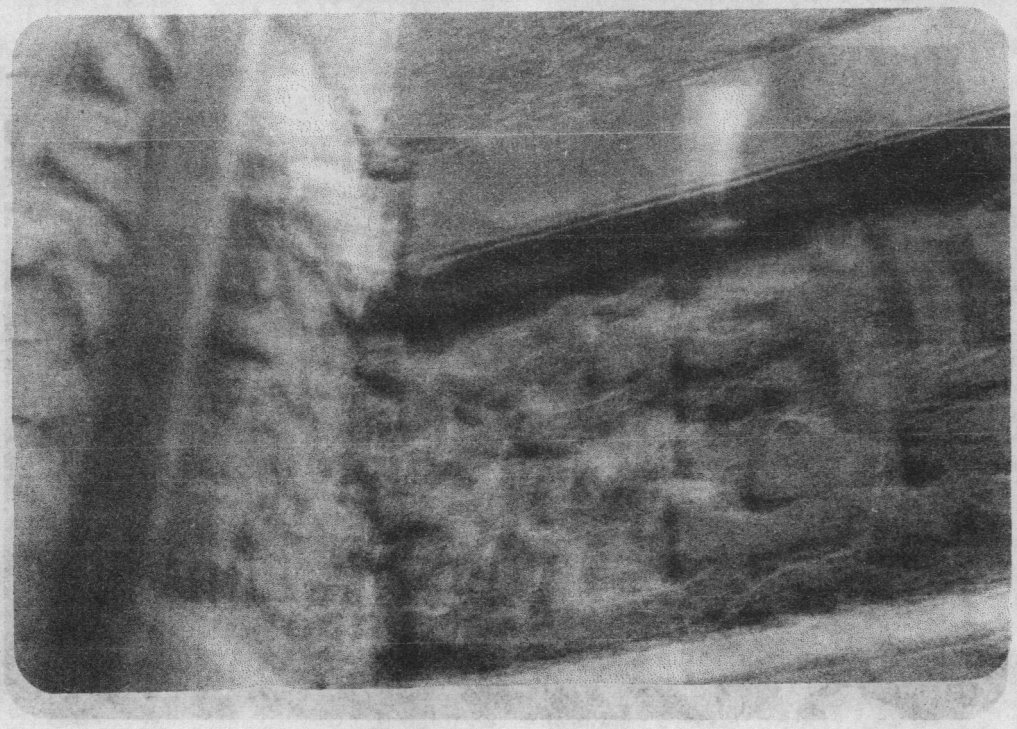

الكتابه التأسيسية على مدخل الجامع بشارع السروجية .

(لوحة ١٠)

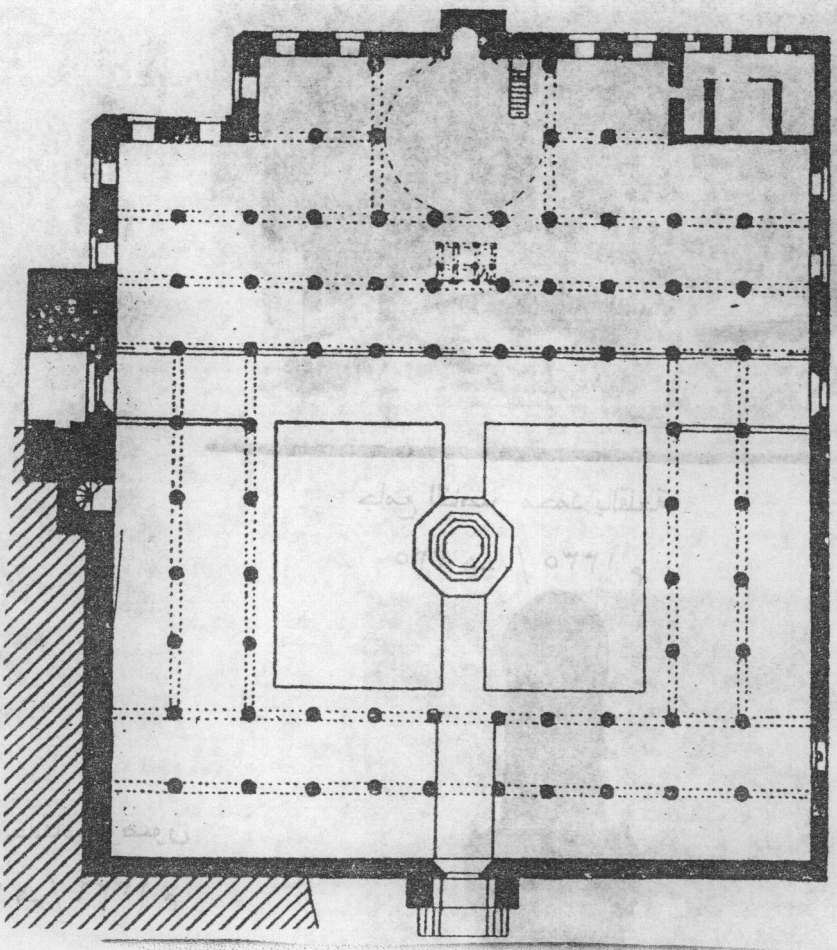

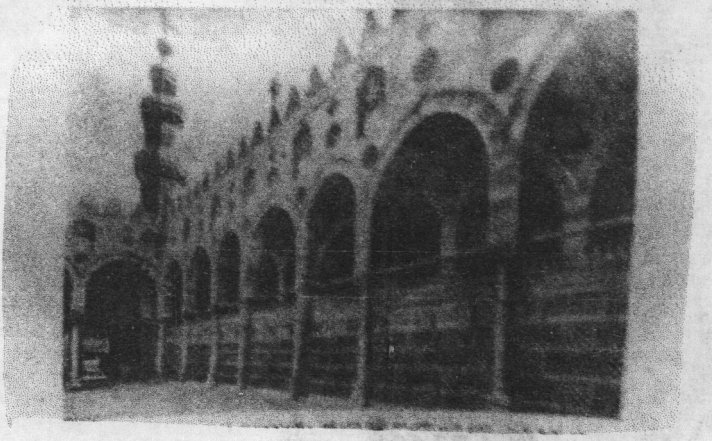

جامع المارداني . سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م

مسقط أفقي – السياج الخشبي

(لوحة ١١)

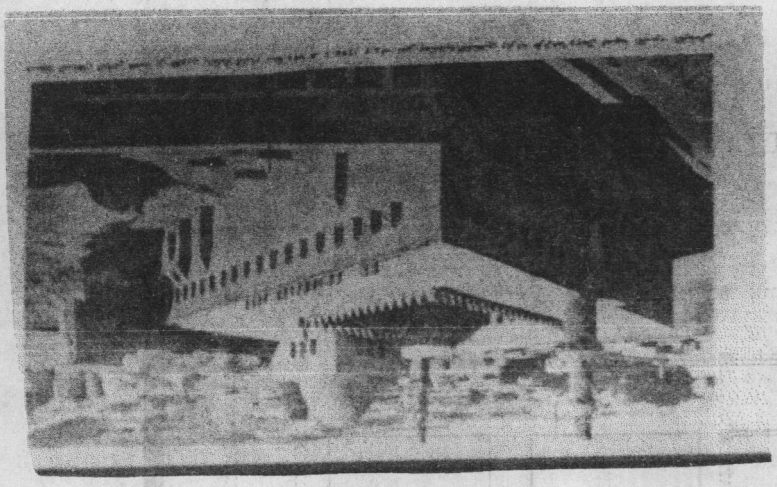

جامع الناصر محمد بالقلعة

٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م

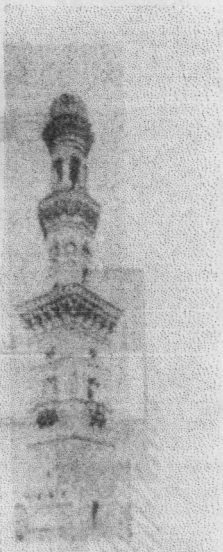

مئذنة خانقاه قوصون

٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م

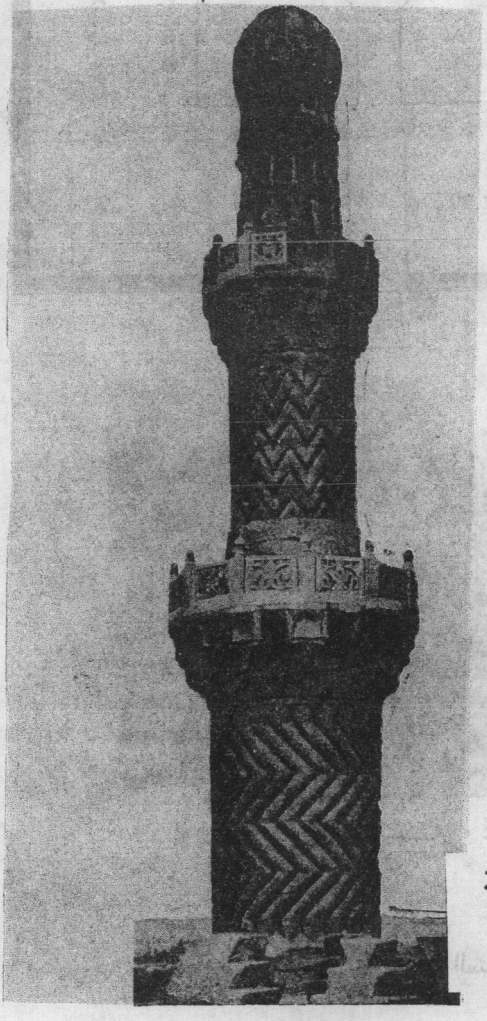

مئذنة جامع الناصر محمد بالقلعة

٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م